اللغة العربية بين التعدد اللغوي والتفعيل المعرفي

أ.د. ذهبية بورويس
جامعة الأمير عبد القادر

تحيا اللغة اجتماعيا لأنها مستقرة في الطبائع تصوغ أفكار الإنسان. وتبصم آثاره ومرجعياتها، كما تستلهم تجدده وتنتج أبعاده؛ إنها الطاقة الدافعة لاستمرار المجتمعات وتواصلها، فهي المرسخة لقيم الشعوب وأساليبها، وتلويناتها، ورموزها وثوابتها، والمجتمعات لا تكون جديرة بالتغيير إلا إذا كان مخزونها اللغوي موفورا وآمنا، ليضمن لها وجودها الحضاري، والمادي والقيمي، إن شعورها الحاضر في تفعيل العملية المعرفية المنتجة هو الذي يضمن لها المرتبة الفاعلة والمركز الأفضل.

يمد المخزون الحضاري اللغة بالعمق والتجذر مما يبقيها حية مقاومة، وإذا أتلف هذا المخزون هدرا دون أدنى وعي من أصحابها، فسرعان ما تنخلع عن جذورها، لتنضغط في شعور أصحابها وتتضاءل، لأنّها تعيش بنَفَس راعيها وحارسها، ولو انشغل عنها، وأقصاها من مجاله التداولي فستنكمش وتضيق، ويفقد معها تقاسيمه وملامح أبعاده لأنّ مخزونها هو الذي يطبعها ويلونها ليحظى فيها بالمكان والزمان.

1- اللغة العربية من مرحلة التواصل إلى مرحلة تحقيق الأغراض:

تعيش اللغة العربية اليوم وضعا لغويا متعددا وهو ما يصطلح على تسميته بالتعدد اللغوي، ففيه يتناوب متكلمون في مجموعة لغوية ما على نظامين[1] لغويين مختلفين؛ وربما

(1) كل لغة تعدّ نظاما قائما بذاته،« فهي نظام من الأصوات، ونظام من المقاطع، ونظام من أقسام الملك، ونظام من الأصول، ونظام من الزوائد، ونظام من الصيغ الصرفية، ونظام للاشتقاق، ونظام نحوي بأبوابه، وقرائن أبوابه، ونظام للظواهر الموقعية، ونظام لأنواع التراكيب ومعانيها». مقالات في اللغة والأدب، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2006م، 32/2.

أكثر، وهذا التناوب ينشأ مقابلا للأحادية اللغوية، إذ يترك أثرا في اللغة الأم. وهذا الأثر ناتج عن تغيرات تحدثها أنظمة لغات أجنبية أو أوضاع لهجية في اللغة الأصلية وتصبح تلك الأنظمة مؤثرة في نظامها الخاص وعابرة لخصوصيتها.[1] ونظام اللغة هو روحها الذي يرسم خريطتها الجغرافية والإنسانية، والعلم بكيفيات استعمال هذا النظام وتوظيفه يحوّل للغة الإنتاج وتحقيق الأغراض.

وفي ظل هذا التعدد اللغوي لا يملك أبناء اللغة العربية اليوم العدّة الكافية في فرض مركزية لغتهم، لهيمنة الممارسات اللغوية الأخرى على كثير من القطاعات الحيوية الاجتماعية والمعرفية التي تتحكم فيها الوسائل التقنية والالكترونية. وحتى تضمن اللغة العربية اقتدارها واستمرارها فلا بد أن يتوفر لها وضع متزن ينبني على المصلحة القومية المحافظة على الثوابت الحضارية دون إقصاء تعسفي للتعدد اللغوي الآخر في صوره الإيجابية. فلغات العالم متباينة يتحكم فيها اختلاف الأمصار وتعدد الأعراق، وهذا الاختلاف ليس مقصورا على جغرافية المكان فهناك عوامل تاريخية واجتماعية وثقافية ومادية تكسب اللغة ذاتيتها، وتطبع تفردها، وهذا التفرد يكتسب إجابيته وعطاءه إذا حقق أشياءه وأغراضه المنوطة به وبالإنسانية جمعاء.

لذلك ينظر إلى التعدد اللغوي على أنه ظاهرة مؤثرة في تفرد اللغة وذاتيتها، ولعلّ هذا التعدد ناتج عن ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية مقصودة أحيانا وفي أحايين أخرى غير مقصودة، فاللغة العربية تزاحمها في أثناء أداء دورها التواصلي والحضاري لغات أقوام أخرى، مما يجعل التحكم في دورها أمرا صعبا لابد أن تتخذ له وسائل منهجية ومخططات تربوية، وأوضاع سياسية ترسي وظائفها دون عزلها عن لغات الأمم الأخرى، ومعارفها، حوارا وتواصلا وتعارفا.

---

(1) اللغة والتواصل التربوي والثقافي، مقاربة نفسية وتربوية، مجموعة من الباحثين، الطفل العربي بين اللغة الأم والتواصل مع العرب، أبعاد المسألة وإطارها المنهجي، محمد شيباني، ط1، 2008م، ص113.

هذا الأمر يتحقق باستثمار الأدوات الناجعة والمناهج العملية التي تسهم في تفعيل العملية المعرفية باللغة العربية، لأنّ اللغة لا تنتهي وظيفتها عند التواصل الحسّي، وإنما هي وسيلة لاستقصاء الحقائق المعرفية ومتابعتها والكشف عنها، حتى لا تكون هذه الحقائق حكرا على لغات تنضوي تحت مركزية اقتصادية أو سياسية كما وقع لكثير من اللغات التي استسلمت لمظاهر العولمة، لتصبح مهجورة من أبنائها.[1]

والأمر الذي لا يمكن تجاهله اليوم هو أن اللغة العربية مهيئة لهذا الأمر الخطير، فقد يقع عليها ما وقع على غيرها من اللغات المتكمشة على ذاتها إذا لم يفزع أصحابها إلى تكريس كل الجهود في تفعيل العملية المعرفية عن طريقها، لأنّ التواصل في جميع الأحوال يكون مرهونا بتلبية الحاجات الآنية اليومية، المحددة بزمن ضيق، فإذا كانت هذه الحاجات غير مستشرفة لتحسين وضع طالبيها، فإنّ وسيلتها (اللغوية) لا يُضمن لها الاستمرار، ولذلك لا بد أن تحتفظ اللغة العربية بمزايا تفعيلها حتى لا تتوقف وظيفتها عند حد التواصل الوقتي المحدد، وحتى يصير هذا التواصل منتجا لا بد أن تُستَجمع له الأغراض الرمزية والروحية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية التي تدفعه دوما إلى الاستمرار[2]، يقول البشير الإبراهيمي:«... لغة العرب، قطعة من وجود العرب، وميزة من مميزات العرب، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة. فإذا حافظ الزنجي على رطانته، ولم يبغ بها بديلا وحافظ الصيني على زمزمته، فلم يرض عنها تحويلا، فالعربي أولى بذلك وأحق؛ لأنّ لغته كانت –في وقت ما– لسان معارف البشر، وكانت –في زمن ما– ترجمان حضارته، وكانت –في وقت ما– ناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب، وكانت –في وقت ما– هادية العقل الغربي الضال إلى موارد الحكمة في الشرق، وكانت –في جميع الأوقات– مستودع آداب الشرق وملتقى تياراته الفكرية، ومازالت صالحة لذلك، لو لا غبار

---

(1) اللغة والتواصل التربوي والثقافي، مقاربة نفسية وتربوية، ص46 47.

(2) إنها حاوية ملؤها ثقافة أهلها ونسقها هو الذي يملؤها دوما فتتسع ولا تضيق إذا توازن منتوجها مع استهلاكها، ينظر التعدد اللغوي، انعكاساته على النسيج الاجتماعي، محمد الأوراغي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 36، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، ط1، 2002م، ص130.

من الإهمال علاها، وعاقٌ من الأبناء فلاها، وضيمٌ من لغات الأقوياء المفروضة دخل عليها، وهي – قبل وبعد كلّ شيء – حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول، ورائده إلى الأفكار»[1].

إن في هذا النص إشارة إلى مخاطر لغة الأقوياء المفروضة في هذا العصر، الذي يعد تحولا حقبيا مرحليا يختزل الخصوصيات والفوارق ويذيب الملايين في واحد ليصبح الواحد متحكما متمركزا، فالعربية تأبى الانصياع لكل أساليب السيطرة والهيمنة، لأنّها احتوت الظاهرة اللغوية الإنسانية، احتواءً متنوعا مرغوبا فيه ممارسة واعتقادا، إنها تختص بخصائص بنيوية مطابقة لمميزات اجتماعية، فهي مكتملة في نسقها واستعمالها الواسع وإمكاناتها التوليدية: والاشتقاقية، غنية بمعجمها واصفة لبنيتها الحضارية، وقادرة على نقل أشكال المعارف الدينية والدنيوية والفكرية، كما كان لها هذا السبق في فترات زمنية متعاقبة متوفرة على الأداءات الفنية والعلمية مترددة بكثرة على ألسنة عدد كبير من المتواصلين بها[2]. إنها لغة واثقة من وجودها باقتدارها في تفاعلها مع الظروف وملابسات العصر، فجوهرها التغييري القيمي يمكنّها من الصمود أمام أعتى هيمنة ثقافية مُكرّسة في خفايا العولمة والتعدد اللغوي.

لقد احتوت هذه اللغة الإنسان بأبعاده الزمنية الثلاثة، وفي داخل هذا الإنسان أجيال حُفرت اللغة في طبائعها وإن اضطربت الألسن، فمن السهل ردها إلى مخزونها عبر أزمنة وأمكنة مفتوحة، إنها لغة لا تستجيب بخصوصيتها القرآنية لمظاهر الأفول، لأنّ هذه الخصوصية تحمل قيم التغيير المعرفي والمادي التي تنتظر التفعيل من أصحابها، لأن اللغات تتفاضل بما ينتجه أصحابها وهذا التفاضل ليس سنة ثابتة في لغة معينة، والقول بأفضلية لغة على أخرى وهم، ولا يمكن أن يكون حقيقة، لأن السنن الكونية والتغييرية ليست حكرا على لغة معينة أو أقوام دون غيرهم، وهذا ما ذهب إليه ابن حزم حينما قال:« وقد توهّم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة»[3] فاللغة ليس بمظهرها

---

(1) الآثار، محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1997، ج3، ص281.

(2) التعدد اللغوي، انعكاساته على النسيج الاجتماعي، ص23.

(3) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1983م، 32/1.

ورقيا بما تحمله في نحوها من خصائص لغوية تعبيرية مكتملة بأدواتها الراعية، كما يتضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

فاللغة في مظهرها الشكلي مجرد أصوات وأداة تعبيرية وهي في عمقها أبعاد حضارية وتاريخية ممتدة بامتداد نتاج أصحابها، فاللغة العربية حينما أنتجت المعارف التي توجاها أصحابها تنظيرا وتقعيدا، ودراسة ووصفا كان هذا الأمر مدفوعا بقوة الظاهرة القرآنية التي غيّرت الثوابت الضيقة وتخلصت من العصبية وتوسلت بالمقاصد المستخلصة من النصوص اللغوية المحكمة، لتغيير البنى الاجتماعية والقناعات القيمية الهشّة، فاتسعت باتساع لغة القرآن الكريم واستجابت لسنّة التعارف فاستلهمت من الثقافات الأخرى لتغير وتنتج وتحيا فتفاعلت مع لغات أخرى كالفارسية والتركية واليونانية قبلت منها المعارف الفكرية والأدبية واللغوية وبخاصة في عهد الخليفة العباسي المأمون، الذي كلف المترجمين بنقل أمهات المخطوطات اليونانية والسريانية إلى العربية، ليصبح في بيت الحكمة فضاء نشيطٌ للمترجمين والعارفين بلغات غيرهم، وحتى بأجناس أخرى من غير العرب ممن يتقنون لغاتهم اتقانا معرفيا متخصصا[2]، لقد كانت مكتبة بيت الحكمة مؤسسة موجهة لها سلطة إنتاج المعرفة وتفعيلها، فاتسعت لتشمل معارف الأمم الأخرى، وبذلك تواصلت اللغة العربية بغيرها دون خوف على ضياع مركزيتها الحضارية لأنها كانت هي المؤسسة المنتجة، والتربة الخصبة التي نمت فيها العلوم وتكاثرت.

لعلّ حدّ اللغة الذي جاء به ابن جنّي في قوله هي: «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[3]، موقوف في صلبه على كلمة "أغراض"، والغرض هو تأسيس لقوّة معرفية مغيّرة للجوانب الحياتية، ماديا ومعنويا، لأن الأغراض هي التي تدفع إلى إنتاج الأنظمة الفكرية والاجتماعية، والاقتصادية، ولا نظن أن ابن جني قد صاغ تعريفه الشامل للغة من وصفه وتفسيره للغات أخرى، وإنما من إلمامه باللغة العربية، التي كشف عن منتوجها من

(1) سورة يوسف، الآية 2.

(2) مدخل إلى علم المكتبات، عبد اللطيف الصوفي، منشورات جامعة قسنطينة، ص58.

(3) الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006م، 1/33

وفق خصائصها المرهونة بإشباع أغراضها[1]، فقد صاغ حدًّا للغة وفق نظرته وتصوره العملي لها في استقصاء ظواهر اللغة العربية في القرن الرابع الهجري أوج الحضارة العباسية، وأرقى مرحلة عاشتها العربية متأثرة بغيرها ومؤثرة فيهم، لأنها كانت محققة لمركزية قيمية وعملية جرّاء ما توفر لها من إجراءات منسجمة مع معطيات كل عصر مثل الاشتقاق والنحت والتوليد والتركيب، مما يجعلها أكثر وظيفية «فالاشتقاق في اللغات أهم وسيلة لتوليد الألفاظ وتشقيق المعاني وربط اللغة في مسار الزمن بحاضرها لتكون مواكبة للمستجد من المسميات، فهو من هذا المنطلق –أداة اللغة لتحافظ على وظيفتها التبليغية–».[2]

فالأغراض هي التي تثبت حاجة كل لغة إلى تحقيق ذاتها، وإلى استمرارها، لأنّ الغرض متبس بنوازع الإنسان يرسم دوافعه في الحياة ويحدد أهدافه المدروسة، فاللغة هي الآلة المنتجة للفكر والثقافة، ومن لا يملك لغة تنتج علما فلا نصيب له في التغيير وإثبات الذات، يقول مازن المبارك «إذا كان الاختصاص العلمي مادة أو فكرا فإن اللغة بألفاظها وقواعدها وأساليبها تفي المظهر أو الصورة التي تتجلى فيها تلك المادة، أو ذلك الفكر، وكلما كانت لغة العالم أغزر لفظا وأدق استعمالا، وأوضح تعبيرا، وكلما كان العالم أكثر دربة في معرفة أساليب اللغة وأكثر تمرسا ودراية بنصوصها، كان أكثر غوصا على علمه...»[3].

2– اللغة العربية والمزاوجة بين الخصوصية والتعارف

إن تعارف الأمم يؤدي إلى تفتح كل لغة على لغة غيرها، يكون هذا الأمر طوعا أو كراهة، فالعالم يعيش اليوم ثورة تكنولوجية ومعلوماتية، الشيء الذي يؤدي إلى هيمنة ثقافية عالمية تضيق الخناق على الثقافة الأصلية عند الأمم غير التابعة بالمفهوم الخلدوني، ولذلك تكرس الجهود للانتباه على تحصين ثقافة اللغة الأم، لاستهلاكها والإنتاج بها،

(1) الغرض هو شدة النزاع نحو الشيء والشوق إليه، وهو الهدف الذي يُنصب فيُرمى فيه، وهو بعد ما بين القصعتين بقدر رمية السهم إلى الهدف. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، 1997م، مادة: "غ رض".

(2) النظرية اللسانية والبيانية عند ابن حزم الأندلسي، نعمان بوقرة، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2004م، ص34.

(3) مقالات في العربية، مازن المبارك، دار البشائر، دمشق، 1420هـ 1999م، ص179.

معرفيا وماديا، حتى لا تصاب بالضمور والانزواء والانكماش[1]

وهذا في حد ذاته دفع إلى الإنتاج والبحث عن نقطة التمركز التي لا تستجيب كثيرا لفخ العولمة، أو لحصار التعدد اللغوي غير المدروس.

فالتفتّح على لغات العصر أمر لابدّ منه، لما في ذلك من إغناء الثقافة العالمية، ولذلك يحسن أن يكون هذا التعارف إيجابيا، فتتغذى فيه اللغات الأصلية من موروثها الثقافي العميق الممتد بجذوره في التاريخ، كما لا بد أن تكتسب تجددها ونماءها واستمرارها من ضوء العصر وتطوراته، فهي ملزمة بهذا لاتصالها بثقافات غيرها، وبالحضارات الإنسانية الأخرى، التي تحاول أن تصوغ منها ما يضمن لها وظيفة التعارف اكتسابا أو إمدادا. ففي ظل رهانات العصر والتعدد اللغوي الذي ظهر بمجرد بروز تغيرات طارئة من خارج اللغة الأم، هذه التغيرات تكون عابرة لهذا النظام اللغوي، وهو انفتاح لغوي، يمتزج فيه الأصيل بالأجنبي، والفصيح باللهجي لعوامل شتى، أسهمت فيها ظروف تاريخية وجغرافية واجتماعية وسياسية وثقافية.

فالتوسل بلغات أخرى في الخطاب والإنتاج والتفكير غير لغة الأم، قد يكون أمرا لا مناص منه في التماس سبل الأداء لتحقيق الأغراض، التي هي من أسباب الحياة والبقاء، ولكن أسباب البقاء لا يتحقق فيها الكمال الروحي والإنساني والفكري، الذي يمد لغة الأم بقدرتها في مواجهة الانحراف الذي تحدثه اللغات المتزامنة معها في عملية الأداء، وهذا الأداء العملي المطلوب لا بد أن يراقب، لأنّ اللغة العربية في جميع الأحوال لا يمكن أن تتحول إلى آلة قابعة في رصيفها التاريخي والجغرافي، إلى جانب لغات أخرى قد تشوش عليها وتهدر طاقاتها، فعلى سبيل ما يحدث في الجزائر من توظيف اللغة الفرنسية في التعليم والقطاعات الحيوية، لا يعد تعارفا بين اللغتين، إنما هو توظيف تكرس فيه كثير من الأفكار والإيديولوجيات والانتماءات والمفاضلات، هذه التي تقود في الغالب إلى الاقتداء بالغالب، ما يؤدي إلى ترك ما هو أصيل إذا كان غير مفعل، لأن المغلوب يعتقد دوما الكمال في غالبه، فيتشبه به وينصهر فيه، فهو يقتدي به في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده[2]، والأمم إذا غلبت وصارت على دين مغلوبها اعتقادا وأسلوبا ولغة وتفكيرا أسرع إليه

---

(1) اللغة والتواصل التربوي والثقافي، مقاربة نفسية وتربوية، ص45.

(2) مقدمة ابن خلدون، دار الجيل. بيروت، ص162.

البناء[1] مما يؤدي إلى مستويات اللغة الأم، تفقد خصوصيتها واتساعها في الأداء، وتصبح ممارستها هجينة بعيدة عن الصفاء اللغوي[2].

ليس في هذا الرأي دعوة إلى عزل اللغة العربية عن تفاعلها مع اللغات الأخرى، لأنّ استحضارها للمعارف اللغوية، والنظريات اللسانية والمناهج العملية التي تمارس تأثيرها في التوجيه والتحسين على مستوى الأداء، قد يستمدّ من مناهج اللغات الأخرى. لأنّ اللغة العربية «لغة أدبية وحضارية... تحفل قبل أي شيء بما يعايشه صاحبها، ويحيط به، ويوظفه لأدنى احتياج من احتياجاته الحسية...»[3]، فهي غير قابلة لأن يُحجر عليها، لأنها مستوعبة للنظريات اللغوية واللسانية التي خلّصتها من النظرة التعصبية الضيقة، فخصوصية تحسين صورتها وأدائها ملتبسة بها، وتفعيلها لا يكون باكتسابها ومعرفة مزاياها واجترار خصائصها، وإنما بوعي أصحابها بخصوصيتها في كونها بناء ذهنيا قادرا على التكيف مع الحياة، لأنها الوسيلة الرئيسة التي تتواصل بها الأجيال، كما هي وسيلة للتفاهم والاتصال والتخاطب، ووسيلة من وسائل النمو العقلي والمعرفي والانفعالي[4]. ولذلك فدفع مضرة اللغات الأجنبية المزاحمة للغة العربية المتزامنة معها أداء يكون بإفراغ اللغة الأجنبية إذا أُريد تعلّمها وتوظيفها وأداؤها... من الثقافة الوضعية الخاصة بأصحابها، وعندئذ يمكن تعليم أية لغة أجنبية دون خوف أو وجل، فقد تُعلّم العبرية مجردة من الاسرائيليات والصهيونيات، وتُلقنّ اللغة الانجليزية وكذلك الفرنسية خاليتين من نصرانيتهما العقلانية، وتحقق هذا الأمر يكون بالتخطيط لسياسة لغوية تراقب البرامج التعليمية وكل الممارسات اللغوية في القطاعات الحيوية.[5]

مثل هذا الرأي يجرّنا إلى الحديث عن الرقابة اللغوية التي تتحقق بتوفر اللغة الأم على وسائل تحصّن بها ذاتها، ولعل أول وسيلة ناجعة هي ثقة أهلها في مزاياها، هذه الثقة

---

(1) المصدر نفسه، ص163.

(2) اللغة والتواصل التربوي والثقافي مقاربة نفسية وتربوية، تأليف مجموعة من الباحثين، الدار البيضاء، 2003، ص114 115.

(3) في رحاب اللغة العربية، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص41.

(4) اللغة والتواصل التربوي والثقافي مقاربة نفسية تربوية، تأليف مجموعة من الباحثين، ص24.

(5) التعدد اللغوي، انعكاساته على النسيج الاجتماعي، ص15 23.

تسمح لها بأن تكون فاعلة لأنك تنقلها من حالة الوظيفة العادية وهي لتوصل اليومي إلى رسوخ في الطبع يجعلها نمطا في السلوك الإيجابي المنتج، ولعل هذا الأمر يتفق مع مذهب العقليين من أصحاب الفلسفة والمنطق الذين ينظرون إلى وظيفة اللغة الرئيسة على أنها «نقل الخبرة الإنسانية، والتعبير عن الفكر واكتساب المعرفة: وعلى هذا فاللغة ضرورة حتمية لتقدم الثقافة والعلم لان الألفاظ كما يقولون حصون الفكر وبالتالي فلا وجود للفكر من دون اللغة...».[1]

وبما أن التعدد اللغوي واقع قائم يصوغ عددا من الأفكار والتصوّرات والأشكال المنفوظة والمكتوبة، فلابدّ أن نتقبله بالحدّ من خطره، فنعالجه بما ينسجم ومطالب العصر، فالعنصر البشري هو المحرك للغة، وهو «الأساس في كل تنمية اقتصادية، ولا يدرك هذا بغير بنية تعليمية مكوناتها الرئيسة المناهج التربوية الهادفة، والمدرس الخبير، والإدارة المؤهلة، والعدة التجريبية الواردة...»[2] فتعارف المجتمعات وتفاعلها لا يلغي أبدا الإفادة من بعضها، والاكتساب من مهاراتها مجتمعة، وما تنوع الأجناس وتعدد ألسنها إلا دفع لتحقيق الأغراض المغيرة والدافعة إلى استكناه الحقائق وإصابة المقاصد، هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

يذهب السيد قطب إلى أن الغاية من هذه الآية، لا تعني التناحر والخصام، «إنما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسنة، والألوان، واختلاف الطباع، والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق؛ بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف، والوفاء بجميع الحاجيات؛ وليس اللون والجنس واللغة والوطن وسائل هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنما هناك ميزان واحد، تتحدد به القيم ويعرف به فضل الناس»[4].

---

(1) اللغة بين النظرية والتطبيق، خالد عبد الرزاق السيد، مركز الإسكندرية للكتاب، 2003م، ص43.

(2) التعدد اللغوي، انعكاساته على النسيج الاجتماعي، ص13.

(3) الحجرات: 13.

(4) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي: بيروت: لبنان، ط5، 1386هـ 1997م، مج7، ص143 144.

فالمفاضلة بين الأمم تتحقق بالقيمة، والقيمة تتشكل بالاعتقاد وترسخ بالمنهج، والمنهج القرآني في حفظ اللغة العربية منحها الاستمرار، لأن القيمة المتوازنة هي مطلب الإنسان في كل مسالكه ومساعيه، ولعل هذه القيمة لا تختلف من حيث مبتغاها فيما تنشده الحكمة الراشدة في هذه اللغة التي وقف منها ابن جني موقف المنبهر الحائر أمام تفردها فقال: «وذلك أني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف، والرقة، ما يملك عليّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر...» [1]، فحيرة ابن جني ناتجة عن مزايا تفرد هذه اللغة. لأن القرآن الكريم حوّلها من لغة محدودة الأفق الفكري متداولة في صورتها القبلية الضيقة إلى «لغة حضارة جديدة قدر لها أن توحّد الشعوب ذوات اللغات المختلفة تحت لوائها، ثم تصبح بمضيّ الوقت لغة عالمية للعلم والثقافة وشؤون الحياة». [2]

تحمل اللغة العربية في أعطافها منظومة قيمية، تهيؤها للتكيف مع المتغيرات دون أن تضيع منها خصوصيتها إذا وجدت السبل التي تفعلها وتضمن لها التواصل الإيجابي مع غيرها. [3]، فلقد منحت دورة الحياة «اللغة العربية صفة الكونية على الاكتساب والتطويع، وتدوين العلوم التي كان من روادها مفكرون غير عرب، سعوا إلى معرفة أسرار اللغة العربية، واستخدام أدواتها، فكان من الطبيعي أن تكثّف الجهود للكشف عن ماهية العلاقات وتقنينها...لأن اللغة هي مختبر الإنتاج المعرفي وبها يتحرّض كمون الخلق والإبداع». [4]

فاللغة العربية تفردت بمزاياها وخصائصها، وهذا التفرد حفّز العلماء وأهل الاختصاص للسعي إلى معرفة دقائقها وأسرارها، وهو ناتج مما حوته من مظاهر الاقتدار في التعبير وظواهره التي خصها بها القرآن الكريم، فبلاغة نصه اقتضت علوما أخرى متصلة به

---

(1) الخصائص، ابن جني، 47/1.

(2) مقالات في اللغة والأدب، 16/2.

(3) ذهب الشيخ الطاهر بن عاشور إلى أن التعارف المقصود في الآية هو مراد الله من جعل الناس شعوبا وقبائل، وهو التواصل. ينظر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط1، 1984هـ، ج25، ص261.

(4) مناهج تدريس النحو العربي في الجامعات واقعا ورؤى، مها خير بك ناصر، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط1، 2013م، ص27.

تحمل في أعطافها القيم الروحية والمادية، مؤسسة لتوجهات علوم الدين والدنيا، وعلى هذه العلوم التفسير، القراءات، الإعجاز، وكل فنون القراءة والكتابة، المتعلقة بنص القرآن الكريم والنصوص المحاورة له في الأجناس الأخرى من الإبداع وضروب الكتابة، لتنسحب على الأدوات الإجرائية التي يبحث بها في تلك العلوم، ولعلّ هذه الميزة هي التي جعلت ابن فارس يستدل على أفضلية اللغة العربية مقارنة بغيرها بخاصية البيان الذي يعني به القدرة على معرفة كيفيات التعبير المتسعة، فهي في نظره أوسع اللغات—وإن كان رأيه لا يقبله الواصفون للغة بعدّها مظهرا تواصليا إنسانيا– وهذا الاتساع من صميم سننها يجعلها دوما قادرة على احتواء غيرها في نقل معارفهم وترجمتها، مما لا يتحقق في اللغات الأخرى إذا أرادت أن تختص بالفعل نفسه.[1]

3– التفعيل المعرفي للغة العربية في ظل التعدد اللغوي

اللغة في نظر اللسانيين لا يمكن ان تُفصل وظيفتها عن جانبها الاجتماعي، فبها يدرك كنه المجتمعات الداخلية، وبها تسبر أغوار هذه المجتمعات، ولذلك تعدّ اللغة العربية وفق هذه الوظيفة مطلبا ملحا في تحسين الأوضاع الاجتماعية التي تأثرت بفعل التعدّد اللغوي، فكان لابد أن يتوفر لهذا التحسين تهيئة لغوية شاملة تكملة لما شرع فيه المنظرون اللسانيين، بتخليصها من مظاهر الاجترار الشكلي والأنظمة اللغوية الجاهزة دون انتقاء أو دراسة، والعروض اللفظية التي لا تعالج عمق الإشكالات المتعلقة بها، والمستشرفة لتفعيل مظاهر الاقتدار فيها بما يتناسب والأزمنة المتعاقبة.[2]

قد تقترض لغتنا من لغة أخرى مفرداتها واصطلاحاتها ولا ضير في ذلك، فأعتى لغات العالم على مر الأزمنة بداية من لغة القرآن الكريم وصولا إلى اللغات المعتمدة الآن في قوى الثقافات في حاجة إلى الاقتراض من غيرها لإثراء وظيفتها، لكن إذا كانت المركزية تحفظ للغات المعتمدة في الدول القوية أصولها فإن اللغة العربية في حاجة إلى جهاز يراقب هذا الاقتراض ولعلّ أفضل من يتولى أمر هذا

---

(1) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ.بدران، بيروت، لبنان، 1964م 1383هـ، ص40 47.

(2) اللغة والتواصل التربوي والثقافي، مقاربة نفسية وتربوية، ص121 123.

الجهاز للمؤسسات اللغوية المختصة كالمجامع اللغوية في الدول العربية، والمؤسسات الأكاديمية المتخصصة.[1]

إن اللغة العربية مثل أية لغة في العالم نظام لفظي وعقلي يحيا بالمرونة والامتداد الحضاري، وضعف أدائه اللغوي لا علاقة له بطبيعة اللغة في حدّ ذاتها؛ وإنما مرده غياب أهلها عن المشهد الحضاري المعرفي في مجال الإنتاج البحثي وردها إلى هذا المشهد يكون بالنفاذ عن طريقها إلى مصادر المعرفة واستيعابها وتوظيف ما هو قائم منها، وتوليد معرفة جديدة تخصها مما يزيد من حجم التحديات الحضارية إزاء هيمنة النموذج الواحد للتنمية واللغة الواحدة.

لابد للغة العربية أن تعزز حمايتها بالحذر العملي في تصديها لمزالق العولمة وتجاوز صدمتها وأمن فخها، لأن العولمة لا تنسجم مع الأغراض القيمية المحتواة في طبيعتها لأنها ترفض تنميط أشكال المعرفة كما مرّ معنا، وتقديم أنموذج موحد يلغي التنوع المعرفي والانفتاح اللغوي ويحدّ من مسيرة من هم أقلّ شأنا اقتصاديا وماديا، كما أن الانفتاح الذي قد يقع دون قصد لابد أن يراقب وفق معايير احترام الذات وإرساء التعدّد لأن أحادية اللغة تؤدي بالضرورة إلى أحادية الفكر وهذا أمر غير مقبول في المشاريع الحضارية الأخرى، فبالتنوع تتحقق سنن التغيير، ومجاورة اللغة العربية للغات الأخرى ضرورة حضارية ومعرفية هو المساعد على تفعيل دور العمليات التعليمية في استثمار الكفاءات والخبرات.

لابد أن يلتفت أهلها إلى تكريس الكفاءات لإنجاح المشروع اللغوي العربي معززا بتفعيل اللغة في القطاعات الحيوية ومشاريع التنمية، لأن العنصر البشري هو المسؤول عن كل تنمية اقتصادية، ولذلك لابد أن ينسجم مع المنظومة التعليمية، فالدراسات الحديثة تظهر أن التطور الاقتصادي يدرك بمنظومة تعليمية ذكية ومحصّنة.

خلاصة القول إنّ الحل العملي في التفعيل المعرفي للغة العربية لابد أن تتحكم فيه مناهج يمكنها أن تحقق الأهداف وأن تستقصي الحقائق فتكشف عنها في تجلياتها العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها من مسالك الحياة وميادين المعرفة، لأن المناهج المدروسة النابعة من تصورات طبيعة اللغة العربية قادرة على خلق الحضارات

---

(1) التعدد اللغوي، انعكاساته على النسيج الاجتماعي، 13. في رحاب اللغة العربية، ص39.

وترسيخ القيم الأخلاقية والاجتماعية، وهي محفزة لاستثمار آليات تطور الأمم بكافة أدواتها المعرفية وتقنياتها التوليدية، فإذا امتلكت المنهج كانت بمنأى عن أخطار التعدد بعيدة عن مضاره وحاضنة لمنافعه.[1]

إن اللغة العربية تمتلك أدوات التفعيل المعرفي لما يتوفر فيها من مظاهر الاستجابة لكل عصر ومستجداته، فأصواتها اللغوية ثابتة لا تتبدل مقارنة بأصوات لغات أخرى، مثل الإنجليزية والفرنسية وغيرهما واشتقاقاتها واسعة محافظة على أصولها وأقيستها، وتوليدها لكلمات جديدة غير محدود هذا يمنحها دوما القدرة على إنشاء ثروة من الألفاظ عناصرها التوليدية من طبيعتها وأصولها وتفاريعها وأشكالها، وهي بهذا تلبي حاجاتها في التعبير عن المعاني والأفكار؛ دون أن تفتقد مرجعياتها، فهي تُنحت وتقترض وتُعرّب، وتُعايش الدخيل فتضمّه إليها دون أن تفقد خصوصيتها، ولكنها لا تنصهر فيه.

فالتعدد اللغوي الذي تعايشه عن كثب اللغة العربية وأحيانا تكاد تنصهر فيه لابد أن ترقبه جهات وسلطات معينة عارفة لأغراضه الإيجابية متوخية الحذر من مخاطره، فالأفكار الإنسانية منسجمة ومتواصلة، واللغة العربية قد تتوجه بها كما أنها قادرة –إذا امتلكت العدّة– أن توجه هي الأفكار، فهي حيّة بالحاجات النفسية والمادية والاجتماعية لأهلها، وهي فاعلة بتكريس كل ما تمتلكه من وسائل وأدوات في كل زمان ومكان ورسوخ ذاتيتها وثباتها يكون باستثمار معطيات حركية الزمن، وما ينتج فيه عبر الأمكنة المختلفة التي قد تتوسع أكثر فأكثر لترتسم فيها الهوية والانتماء والتغيير[2]، ونحن في مثل هذا الوضع مطالبون بتعميم اللغة وتوسيعها وإنتاجها واستهلاكها بمناهج تُكسبها التوازن، حتى «تُشكّل قوة وغنى، يؤكد مكانة وقيمة حضارة أصحابها».[3]

---

(1) مناهج تدريس النحو العربي في الجامعات، واقعا ورؤى، ص26 27.

(2) اللغة العربية أصل اللغات، وذاتيتها وتأثيرها، عبد العزيز عزت الخياط، الدار المتقدمة للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 1318هـ 2005م، ص24 28.

(3) اللغة والتواصل التربوي والثقافي، مقاربة نفسية وتربوية، ص45.